

هيكل: نعيش مرحلة فوضى عارمة في العالم العربي

القاهرة - "الخليج" 16-6-2007

اعتذر الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل عن عدم قبول درجة الدكتوراه الفخرية في العلوم الإنسانية التي قرر مجلس الجامعة الأمريكية في القاهرة منحها له يوم أمس الأول الخميس. وألقى الكاتب الكبير كلمة في مناسبة تخريج دفعة جديدة من طلاب الجامعة أوضح فيها أسباب اعتذاره عن قبول الدرجة. واستبق حضور الكاتب الكبير حفل تخريج دفعة 2007 من طلاب الجامعة الأمريكية مكاتبات بينه ورئيس الجامعة في القاهرة دافيد ارنولد، عبر خلالها الأخير عن سعادة الجامعة باختيار الكاتب الكبير لنيل درجة الدكتوراه الفخرية في العلوم الإنسانية، "تقديرًا من الجامعة" لصحافي متميز ونموذج في القيادة المدنية، وضع علامته على حياة مصر بشكل لا يقدر عليه غير قليلين.

ومنح مجلس الجامعة الدكتوراه الفخرية لهيكل حسبما جاء في حيثيات القرار نظراً "لجهوده المستمرة والقيادية في مجالات الصحافة والخدمة العامة، وإنجازاته طوال تاريخه العملي التي تعكس مستوى عالياً من الأمانة والامتياز في توثيق تاريخ مصر السياسي".

وأرسل الكاتب الكبير اعتذاره عن قبول الدرجة في خطاب إلى رئيس الجامعة في 5 مارس الماضي ثمن فيها "حماسة مجلس أمناء الجامعة منحه تلك الدرجة العلمية الرفيعة"، لكنه اعتبر أن "تكريم الصحافي من حق جمهور قرائه فقط، بحكم سلطتهم الأدبية والمعنوية عليه" مشيراً إلى أنه حاول مراعاة هذا المبدأ "إزاء دول شاءت أن تهديني أوسمتها بما في ذلك وطني مصر، وإزاء هيئات تفضلت وأرادت أن تحتفي بي، بما في ذلك جامعات عربية وغير عربية رأت أن تهديني أرفع درجاتها العلمية".

ولفت هيكل في خطابه إلى رئيس الجامعة الأمريكية إلى الدور البارز الذي تلعبه الجامعة في الحياة العلمية والفكرية على اتساع العالم العربي كله، مثنياً دورها في أنها "فتحت أبوابها ومن دون تردد لبداية نشاط مؤسسة شاءت الظروف أن تحمل اسمي، وهدفها خدمة الصحافة المصرية والعربية في زمن يتحتم فيه على وسائل الإعلام في أوطاننا أن تعمل على تأهيل نفسها لأحوال ومسؤوليات تلاحق عوالم وعصور مستجدة".

وكان الكاتب الكبير قد شارك في حفل تخريج دفعة العام 2007 من طلاب الجامعة وألقى كلمة هذا نصها:
حضرات السيدات والسادة.

شاءت جامعتكم الكبيرة ممثلة بهيئتها الأكاديمية ومجلس أمنائها ورئيسها الدكتور دافيد ارنولد ان تمنحني الليلة درجة الدكتوراه الفخرية في العلوم الإنسانية، وذلك شرف سعدت بفكرته قدر اعتزازي بحيثيات قدمت له.

لكن المفارقة ان الفكرة والحيثيات معا- وربما من حيث لا تصعد- اعادتنى مرة أخرى إلى مقاعد الدرس والتحصيل طالب علم، يتعرف إلى أبجدية جديدة وحرف مغاير ولغة زمان يتحول بشدة وبسرعة، من غير انقطاع بتعسف، سواء مع الذاكرة الوطنية والقومية، أو مع مسار الحياة وتقدمها بالضرورة والطبيعة.

ان اللجنة الأكاديمية الخاصة لهذه الجامعة وهي توصي بالفكرة شارحة حيثياتها- ومجلس أمنائها وهو يقر بالإجماع توصيتها خلال دورته السنوية في شهر فبراير الماضي 2007- ورئيسها وهو يكتب إلى بالقرار وحيثياته- هؤلاء جميعا منحوني أكثر من ظاهر ما قصدوا إليه، إذ اتاحوا لي داعياً لمعاودة التفكير والتأمل ثم الالتفات إلى آفاق تفتحت ومجالات توسعت، وكلها تشير إلينا بالعودة مرة أخرى إلى مقاعد الدرس، علنا نلحق طرفاً من علوم ومعارف زمان عالمي متغير.

والحاصل أن قرار الجامعة الذي جاء بي إلى هذه القاعة الزاخرة بالنور والحيوية، يعطيني الليلة مجموعة من الدروس المفيدة، تجعلني ابادر اليكم بالشكر قبل ان تتوجهوا بالفضل، واسبق نحوكم بالعرفان قبل أن تلتفتوا نحوي بالتقدير، إذ اجد نفسي ومن أول نظرة، أمام عدد من الدروس واضحة الدلالات ظاهرة المعاني:

الأول : درس في تواصل الأجيال يقارب المعجزة لذلك انحنى هنا أمامكم رجل يمثل جيلاً يمضي بالعمى على طريق الغروب لكن بالقرب منه طريقاً آخر دخل عليه في الحال جيل تشرق الشمس على شبابه بفيض من الأمل والخصب.

انني أمامكم هنا رجل طوف بالأفاق قريباً وبعيداً وتايح تجارب زمانه وعصره ورأى رأي العين خططا ومشروعات تظهر وعوالم تتشكل ووقائع مشهودة في الحرب والسياسة وعهوداً من الإمبراطورية والتحرر والثورة والانقلاب والتقدم والتراجع، تحتدم على اتساع الوطن والإقليم والعالم ملتقياً خلال هذه الرحلة واسعا وبعيدا ومعظم الرجال والنساء الذين تصدروا وقادوا معارك الصراع الانساني الهائل الذي امتد بين

النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الحقبة الأولى من القرن الحادي والعشرين. لكن من حول ذات الرجل في اللحظة نفسها بشائر شروق كطالع على سماوات مفتوحة متوهجة بالفرح تعلن ميلاد نهار جديد حاشد بمسؤوليات تتعدى تصورات الأمس فهذا نهار يستدعي شباب الوطن والأمة كي يتحولوا من مراقبين متابعين لعالمهم إلى أطراف مشاركة في فعله وكان العالم بالأمس اقليم او قارات والان فإن العالم امام هذا الشباب كون أو أكوان وتلك نقلة مذهلة عليه مسؤولية التعامل معها، وان كان عليه في الوقت نفسه محاذرة ان تنفلت النقلة إلى اقتلاع او اغتراب ومن ثم تيه واحباط. اننا نتحدث كثيرا عن الحركة، حركة الحياة وحركة التاريخ وحركة التغيير وحركة الانتقال من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل ومع ذلك فاننا نصف دون ان نشاهد وكثيرا ما نطبق ما نعرف عن قوانين الطبيعة دون ان نرصد فعلها المباشرة.

لكن فعل الحركة في هذه القاعة مرئي بالعين ملموس بالحس وذلك مشهد جليل وفي الوقت نفسه درس بليغ لانه من الصعب بقوانين الطبيعة ان يلتقي شروق مع غروب، لكنه من منظور التاريخ فإن هذا الصعب يقع احيانا، وعندما يقع فهو فعل في تواصل الحياة وتجدها يمكن للحاق به ورصده وذلك ما أبصره هذه اللحظة.

الدرس الثاني: ان هذه القاعة كما تتبدى الآن برهان يؤكد ان العلوم والمعارف والثقافات هي في مجملها حضارة شراكة انسانية متداخلة موصولة بقدرة البشر على الاستيعاب وكفاءتهم في التعامل مع مطالب الحرية والعدل ومع اغراض القوة والتفوق، غير ان هذه الشراكة الإنسانية لها في كل وطن وبلاد واقليم نبرة خاصة ومذاق بعينه، يعكس ثقافة تحمل رؤيتها لعوامل القدرة والغلبة بما يناسب امنها المطلوب ومصالحها المرجوة.

وليس خافيا انني في كثير مما كتبت وقلت ولا أزال اكتب واقول أختلف واحيانا بشدة وبحدة مع السياسة الامريكية ازاء العالم العربي وهذا الخلاف حقائق اشياء من تباين المواقع والمطالب والمصالح وكذلك الثقافات وبرغم ذلك وحتى اذا اخذنا في الحساب فواصل ما بين القيم الاكاديمية والممارسات السياسية لأي إدارة فإن الجامعة الامريكية لم تستشعر حرجا ولا توقفت امام خط احمر يستوجب القطيعة او يستدعي الصدام وذلك درس آخر يعلمنا ان مسافة ما بين الضفاف تحتاج إلى المعابر قبل العوائق خصوصا ازاء تناقضات الفكر وحوارات العمل العام حتى اذا تعكر مزاج بعض الاطراف في مواسم الخماسين.

الدرس الثالث: وهو درس في المعامي قبل المراسم وفي العام قبل الخاص مؤداه انني احسست بالفضل كاملا حين تلقيت نص الحثيات التي رتبت عليها الهيئة الاكاديمية للجامعة ما رأت توجيهه إلي من شرف وكانت مطالعة هذه الاسباب كافية حتى ارى انه من باب المبالغة طلب اضافة عليها.

والشاهد إنسانيا ان كل واحد منا في خاطره أمنية مشروعة تطمح إلى اعتراف الآخرين بأن دوره كان نافعا لمجتمعه وانه ترك على سجلاته علامة او بصمة واصاف موقفا او فكرة إلى المخزون العظيم من ذخيرة وطنه وامته.

فإذا جاء هذا الاعتراف ممن يملك اختصاص واهلية وشرعية الاعتراف فقد يكون على المعني بالامر ان يكتفي بالتعبير عن امتنانه وعرفانه ثم ينصرف دون تلكؤ في انتظار توثيق مختوم.

الدرس الرابع: وهو يخص المهنة التي أنتمي اليها مؤداه ان الصحافي او بالتحديد مهمته تمر في العادة عبر ثلاث مراحل.

في المرحلة الاولى تكون مهمة الصحافي ان يضع تحت نظر قارئه ما يظنه لازما من اخبار ومعلومات صحيحة ومستوفاة.

وفي المرحلة الثانية تتسع المهمة بحيث يصبح جائزا للصحافي بحصيلة المرحلة الاولى ان يبلغ درجة من خبرة تسمح له بتحليل المكتوب والمنشور والتعليق عليه.

وفي المرحلة الثالثة تكون مهمة الصحافي واحيانا همه إلى جانب الإخبار والاعلام والى جانب التحليل والتعليق ان يقوم بالتذكير والتنبيه.

وربما اعتبرت نفسي ولو بحساب السنين صحافيا يعيش هذه المرحلة الثالثة أي مرحلة استشارة الذاكرة وتنبيهها جهدا ضمن جهود لعل الضمير الوطني والقومي يظل حارسا يقطن محرضا على الوعي او في القليل مشددا على الحرص.

الا ان الصحافي مطالب قبل تذكير الناس وتنبيههم بان يفعل ذلك مع نفسه بحيث يدرك ويتصرف وفق اصول وحدود ربما كان عليه الا يغفل عنها او ينساها

وعندما وصلتني رسالة رئيس الجامعة ينقل إلي قرارها فقد وجدت من حقه وحق الجميع علي ان اكتب اليه واضعا امامه قاعدة حرصت عليها ولزمتها دائما وحاولت شرحها في رسالة اليه ملخصها ان رموز التكريم والتشريف او ما شابهها من اشارات وعلامات هي بالنسبة للصحافي حق قرائه ومتابعيه واذنهم وسماحهم بهذه الرموز هو مجرد اهتمامهم بعمله ونقتهم فيه.

ولقد اخذت بهذه القاعدة مع الأوسمة والنياشين والدرجات ازاء دول ومؤسسات علمية ومهنية عربية واجنبية وحين بدا لبعضها انني الزم نفسي بما لا يلزم، فقد ابدت ان تلك قناعاتي والان فات وقت الخروج عليها.

لقد كان بودي قبل ان اترك هذه المنصة وكما هو المألوف في مثل هذه المناسبات ان اقدم لشباب الخريجين وهم الجيل الطالع مع الشروق هذه الليلة نصيحة قد تنفع مستقبلا لكني امتنع عامدا واكثر من ذلك فإنني اتمنى على هذا الجيل وبمنتهى الجد الا يطلب نصيحة السابقين مهما بلغ حسن ظنه بهم ولدي في ذلك اكثر من سبب:

هناك اولاً زحام في المتغيرات المتدافعة يستدعي حقائق لم يختبرها جيل سابق، بحيث يحق له ان يفتي فيها بثقة ويستفيض

وهناك ثانياً ان خبرة السنين في العالم العربي مثقلة بعصورها وذلك ميراث تقليدي لم يعد صالحا لجيل عليه ان ينتقل من مواقع لم يعد ممكنا اعادة البناء وسط أطلالها. وحتى اذا كان عليه ان يعود لاحقا إلى تلك المواقع يدرسها ويحاول استقراء آثارها ويعرف من الحقائق ما هو لازم لضميره فان تلك ليست مهمته العاجلة هذه اللحظة.

وهناك ثالثاً وذلك قدر هذا الجيل انه يخرج إلى عالم عربي تمسك به ازمان وصلت تداعياتها إلى حيث افقدته الثقة بنفسه واصابته بحال من الاحباط، يهرب منها البعض اما بالاستسلام لليأس او بالانسحاق إلى خداع النفس وكلتا الحالتين رباط بالماضي أن الاوان لتحريره وفك وثاقه.

وهناك رابعاً : حالة فوضى عارمة في العالم العربي وهي فوضى تضغط على كل معني في الهوية واصولها والشرعية ومصادرها، والقيم ومرجعياتها بل تضغط على الحق والحياة والحرية في أبسط تجلياتها وفي اوقات التخبط والضياح فإن يدا شابة شجاعة لا بد ان تمد يدها إلى الفعل الجسور من خارج سياق اصبح جريانه تسربا عشوائيا وخطرا

وهناك آخراً وليس اخيرا ان هذا الجيل يحتاج إلى ادوات ووسائل مفارقة لما سبقها، ولان النقلة كما اسلفت مذهلة فان المفتاح هو الاكتشاف والفتح وليس المألوف والمعروف.

لذلك اتجاسر واقول لهذا الجيل مباشرة لا تسألوا احدا ولا تطلبوا نصيحة البارحة، أياً كان مصدرها من اجل الغد، واذا فعلتم فالجواب في الغالب معتم أو مظلم لان شمس البارحة سافرت في الغروب.

خذوا المسؤولية بأيديكم واطرحوا سؤال المستقبل وتوصلوا في اول النهار الجديد إلى جواب عنه فانتم اصحاب المسألة كلها سؤالا وجوابا ومستقبلا.